ارتحالات الوعي..قراءة في التوحيدي

فضاءات المدن العربية

د.هالة احمد فؤاد

يرى د.إحسان عباس فى دراسته الرائدة حول أبي حيان أنه يمثل وعياً اجتماعياً غير ناضج، وعياً غير مبني على فلسفة متكاملة فى الحياة، فهو هدف للمتناقضات، يقف وحده، لايخلق له فكرة واضحة، ولا يسعى ليجمع حول فكرته أنصارا. وبهذه الصورة يتمثل لنا كيف يقع الفرد فى المأساة؛ لأنه لا يفهم معنى الصراع الاجتماعي. وبرغم أنني أتفق مع إحسان عباس فى أن التوحيدى كان تجسيدا لمأساة الفرد الذي يقف وحده فى وجه التيار، لكنه لا يستطيع صده، فإنني أختلف حول وصفه بأنه يمثل وعيا اجتماعيا غير ناضج، وفقا لمعايير كلاسيكية إلى حد ما، مرتبطة بتشكيل مذهب فلسفي متكامل متسق، ونزوع فعلى لتكوين تيار، وتشكيل حركة تغير جماعي. ذلك أن الوعي الذي يمارس النقض والشك والسؤال المتجدد حول كل شيء مهما كان هامشيا، ناهيك عن كونه وعيا لا مذهبيا، فإنه وعي يمارس علاقة شديدة التعقيد والخصوصية بالظاهرة الاجتماعية فى تجلياتها البعيدة والملتبسة، والتى تبدو ساذجة وبسيطة في كثير من الأحيان. بل إن هذه الفردية المأساوية في حد ذاتها تطرح نمطا لافتا من أنماط الوعي الاجتماعي الملتبس بالظواهر السيكولوجية، وعلاقتها الإشكالية بالظواهر الاجتماعية، ولعل ما حققه العلم الاجتماعى مؤخرا من تجاوز واضح للنظرة الدوركايمية والمهتمة بالظواهر الضيقة الصارمة، لحدود علم الاجتماع، والفاصلة له فصلا حادا عن غيره من العلوم الإنسانية، يقدم لنا إمكانية لدراسة هذه الأنماط الخاصة من الوعي الاجتماعى دراسة أكثر ثراء وفهما وتعمقا، على أية حال، هذه فرضية لابد من اختبارها في قطاع واسع من الفكر الإسلامي الوسيط، وليس هذا مقام طرحها.

أما محمود أمين العالم في دراسته حول تساؤلات الهوامل المنشورة في مجلة فصول، فيرى أن أسئلة أبى حيان على تنوعها وعمقها في الهوامل، ليست أسئلة العصر الأساسية التي كان يعيش فيه، بل هي أسئلة ثقافية معرفية فلسفية مفارقة، أسئلة مجتمع معين من المفكرين والعلماء والمثقفين. ولأطرح سؤالا فى هذا الصدد، ألا يمكن أن تطرح أسئلة العصر وقضاياه الكبرى الأساسية من خلال أبسط مظاهر الحياة الإنسانية، وأكثرها ابتعادا عن الإشكالية، بل من محاولات الحفر العميق فى المفاهيم والممارسات بحثاً عن المضمر الخبيء فى اللاوعي الجمعي لثقافة ما، وكشفا لعلاقات الخفاء، وزلزلة للمسلمات والثوابت على كل المستويات! بل إن التوحيدي فى مناقضته الواضحة لكيفية الطرح العقلاني القائم في عصره، ونموذجه مسكويه، كان يسعى نحو ممارسات معرفية أقل استقراراً وثباتاً وقولبة ويقينية وأبعد غوراً وأشد عمقاً وحيوية وتوتراً فى قدرتها على معالجة قضايا العصر وإشكالاته في ظل فضاء معرفي نسبى مفتوح يستوعب إيقاع العصر، ويكشف عن خباياه، بل إن الأستاذ العالم يقر بمفارقة الطرح الحيوي القلق لدى التوحيدي فى مواجهة الطرح الأرسطى اليقيني لدى مسكويه!!

ويمكننا القول بأن مأزق التوحيدي يكمن فى أنه كان حداثيا، ربما أكثر مما يحتمل بعض الباحثين المعاصرين.

ولعل د.جابر عصفور فى حديثه عن أبي حيان، كان أكثر تمثلا لطبيعة هذا المفكر ووعيه المركب، والتباساته الإشكالية؛ إذ يؤكد أن أبا حيان كان نمطا فريدا من المبدعين لا يخضع للتصنيف الجامد الذي يختزل الثراء فى صفة واحدة البعد كالموسوعية وغيرها. ذلك أنه كان تجسيدا لافتا للوعي المديني الذي من لوازمه الشك في التقاليد الجامدة والأوضاع الثابتة والقوالب المتحجرة، وإثارة السؤال الدائم حيث الأفق المعرفي النسبي المفتوح دوما للتعددية والاختلاف الثريين، والتسامح، كفضاء المدينة متعددة الأعراق والأجناس، واللغات والديانات والمذاهب والعلاقات. . . إلخ. إن فضاء الوعي المديني هو فضاء التمرد والعقل الحر الذي لايكف عن مساءلة ذاته، وكل ما حوله سعيا لتأسيس إمكانات الحوار الخلاق لا التنافر والصراع المدمر فى عمق مساحات التنوع والاختلاف. وبالطبع، يسعى هذا الوعى لتأسيس الحضور الإنسانى الأصيل الفاعل فى التاريخ وبالتاريخ، بوصفه حضورا حيويا إبداعيا خلاقا، لا يخضع للنظريات والقوالب اليقينية المطلقة. بل إنه وعي يحلم بتتميم النوع الإنساني حضاريا؛ حيث يضيف اللاحق إلى السابق، ناهيك عن كونه وعيا يسعى لتأسيس صيغة اجتماعية أكثر رقيا واحتراما لإنسانية الفرد؛ حيث يتبادل الحوار الجدلي مع الآخر الاجتماعي، ولا ينسحق فى ظل الجماعة وحتمياتها المتنوعة، وستتصاعد هذه النغمة لتسفر عن نقيضها تدريجيا؛ حيث ستتجه هذه النزعة الإنسانية إلى طابع نخبوي متعال، كرد فعل دفاعي إزاء وطأة حضور الجماعة أو الحشد حضورا تسلطيا رقابيا عدوانيا وهجوميا فى أحيان كثيرة، كما سنرى فيما بعد.

وإذا كان الوجه سالف الذكر للوعي المديني، هو الوجه الإيجابي الحالم، أو لنقل التجلي المثالي له، فهناك وجه أخر سلبي بل وحشى وقاس للمدينة. غير أن هذا الوجه لن يتجلى عبر مرآة الوعي التوحيدي إلا فى ظل ما سيواجهه هذا الوعي من إحباط وتجاهل ولا مبالاة، بل نفي وإقصاء معرفي وسلطوي يوقعه دوما تحت وطأة الضرورة الساحقة للعيش.

إن هذا الوعي المحبط اليائس سيسقط فى فخ الميتافزقيا؛ إذ يقدم لنا طرحا مفارقا لمأساته ذات طابع خلاصي كما ذكرنا آنفا، حيث يلتقط الوعي التوحيدي المغترب، بل يعاني قسوة ووحشة معايشة وجوده العدمي داخل فضاء العبث والزوال واللاجدوى ظلالية الحضور. فالكل باطل، قبض الريح، كالسراب المراوغ الذي لا يلبث أن يختفي ويتبدد كلما حاولت الذات الإمساك به فكأنها تقبض على الفراغ والعدم، غير أن هذه الصياغة المفارقة ناضحة بالحضور الواقعي المرير لقسوة العيش فى البلد الوبيء، وبالوعي الحاد المؤسي بوحشة الضياع داخل فضاءات المدن الكبرى، وغربة الفرد وانسحاقه واستلابه متعدد المستويات داخل هذه المدن الجاهلية،فيما أسماها الفارابي، أو الجائرة فيما أطلق عليها إخوان الصفاء في رسائلهم.

يقول التوحيدي:

" اللهم نغص العيش في هذا البلد الوبيء، وفي هذا المكان المقض بين هذا السواد المظلم، على هذا البسائط الشائك... يا كيد الزمان، ونكد الأيام ... يا مضاجع البلوى تمهدي... يا مناهل العيش تكدري .. يا معالم الأنس بيدي ... يا هذا ... هممك كلها فاسدة ... أعمالك زائفة ... ليست نافعة ... أحوالك مكروهة .... إلى متى تظن أنك رابح وأنت خاسر ... سرك كفران، لفظك بهتان، وسرورك طغيان، غناك بطر، فقرك ضجر، غرورك رياء وسمعة ... أحوالك كلها بهرج وزيف ... هذه الدار ... امتلأت بالذئاب ... يا هذا ؛ أنت تفضل إنساناً على إنسان ... بالدراهم والدنانير، والثياب والضياع والفاشية والحاشية ... يا هذا ... دع سكران الهوى حتى يتهادى في سكره ... ودع المحتاج حتى يموت على حاجته ... فليس إلى البغية سبيل ... يا هذا ... أخلق الدين وعمت الفحشاء، وفسد العلماء وفشا الجهل، وظهر الغي، وتكاشف الناس، وفقد الصدق، وكثرة الجرأة ... يا هذا الوقت كدر والأمر عكر، والحال قذر والفعل منكر والوجه وقح، والغفلة غالبة، والأحداث سالبة ... أيها الصاحب... فما لبثنا فى هذا البلد الوبية، والمدينة الحرجة إلا كلفت اليمين عن الشمال وكنقرة الديك في الماء أو كظل قد أخذ فى النقصان، أو كتوهم من النفس، أو كلمح من البصر".

وهكذا، ومن عمق الطرح الميتافزيقى ذى الطابع الدينى والأخلاقى، يبزغ وجه المدينة القاسي، دار الذئاب، حيث يسود الصراع والتناحر والدسائس والمؤامرات والتحاسد والتباغض، وتتفشى العداوات، ويتقاتل البشر كوحوش ضارية من أجل البقاء، وسعياً لاهثاً محموماً وراء تحصيل الملذات الدنيوية، والمآرب والأطماع المبتذلة التافهة، خاصة في مجتمعات النخب بمستوياتها المتعددة وعلاقتها المعقدة. إن المدن الوبية، فيما يطلق عليها التوحيدى، هي مدن الزمان الفاسد الرديء الواقع المنحط، واقع البغي والطغيان والاستبداد؛ حيث يمارس القمع فى جميع صوره وتجلياته، السياسية والدينية والثقافية، والاجتماعية والاقتصادية. وعبر نسيج العلاقات العنكبوتية داخل هذه المجتمعات الوبية، يفرض على المرء حظرا مركبا إذ يغدو مراقبا مرصودا من خارجه، وداخله على حد سواء، يتربص به ويحاصره الغدر والخيانة التي قد تأتيه من مأمنه. وتتسم هذه المدن بكونها مدن الشر والترف والبذخ المهلك والفاحش والمجون ومجالس الخلاعة والندامة، أو ندماء اللحظة العابرة الذين يبيعون ولاءهم بالمال والموائد العامرة والعطايا المتنوعة. إنها مدن المظاهر الزائفة البراقة وخواء الباطن، مدن لحظية الزمن، فاقدة دفء الذاكرة أو توهج الحلم المستقبلي، لا يحكمها سوى الآن العدمي الذي يبلور حضوره العلاقات والمصالح والتحالفات المؤقتة المتغيرة بتغير الأهواء والأمزجة والغايات. وهى بالطبع مدن المعايير الظالمة والزائفة حيث التفاوت الحاد بين الفقراء والأغنياء الجشعين البخلاء، وحرمان الفاضل وإدراك الناقص، وعلاقات الرياء والخوف والكذب، أو النفاق والشقاق، وانفراط عهود الصداقة، وتفشي العداوات بين الأخوة والأقارب والجيران، وتشيع داخل مدن الجهالة هذه ممارسات التطرف على كل المستويات المعرفية والقيمة، بل إن علماء هذه المدن ووعاظها وزهادها يتسمون بالنفاق والرياء يطلبون الدنيا بالعلم، ويغدون وسائط السلطة الاستبدادية وحماتها ودعامتها وهكذا، تغدو فضاءات هذه المدن ذات الآراء والأعمال السيئة والأخلاق الرديئة والجهالات المتراكمة، فيما يصفها إخوان الصفاء، فضاءات لصياغة المعايير المزدوجة المتناقضة، العبثية اللامعقولة، الصادمة لكل منطق، والتى تهتز أمامها العقول الواعية، متحيرة ومرتبكة وحزينة، يتساءل التوحيدي فى هوامله، قائلا:

" ما علة كثرة غم من كان أعقل، قلة غم من كان أجهل؟" فيرد عليه مسكويه، ردا مهماً، قائلا: " العاقل لأجل جولان فكره كثر انتظاره مكاره الدنيا".

بل إنه فى مقام آخر يطرح سؤالا أخر يبدو ساذجا وهامشيا للوهلة الأولى، لكنه شديد الدلالة والعمق من وجهة نظري، إذ يقول:

" لم صار السرور إذا هجم كان تأثيره أشد، وربما قتل؟ ... ولا تكاد تجد هذا العرض في الغم والهم النازل الملم؟" .

❖ فصل من كتاب يصدر قريباً عن دار (المدى)

في ذكرى الشهيد علي عبد الحسين مخيف

باسم عبد الحميد حمودي

منذ عامين . ربما اكثر وربما اقل . اغتيل الناقد الاستاذ علي عبد الحسين مخيف في منطقة من مناطق بغداد من دون ذنب جناه سوى اسمه . ويالله العار . فالرجل لم يكن مع احد سوى العراق، والرجل ناقد ومثقف معروف كتب عن الكثير من ادباء العراق من دون تفريق بين احد، اذ لم يكن في ذهن (شياب) (الادباء وهو منهم وانا) ولامن شباب الادباء (التفريق) بين المبدعين باسم المذهب أو الدين او اللون ، وكلهم يعانون ، والشهيد علي ر حمه الله كان قد عاد قبل فترة قصيرة من رحلته الى ليبيا حيث امضى فيها سنوات عمل مرهقة بالابتعاد عن الوطن، وعندما عاد الشهيد علي مخيف عين خبيراً في وزارة التربية وبدت الحياة اكثر هدوءاً بالنسبة له، ولم يكن ليصدق ان احدا . من أي تيار او حزب . سيقصده بشر اذ لم يكن قد اساء لاحد من الناس فكيف بمجموعة جماهيرية؟! وعلى اساس من ثقته بالناس وبان احدا لن يؤذي وجها جميلا سمحا عجوزا، كوجهه وان احدا لن يجرؤ على الصياح بوجهه وهو الدمث الاخلاق والذي يحسن معاملة الناس واحترامهم فكيف يسحب من سيارته ويقتل هكذا امام زوجته أعانها الله؟

ذلك ماحدث فعلاً، وذلك ما جاء به المخبر لأهله ، ولم يكن احد من الادباء او سواهم يعلم بالذي حدث، وما كان واحد منهم يستطيع ان يصنع شيئاً له وقد قتل علي مخيف غدرا هكذا في وضح النهار.

يقينا ان الاستاذ علي عبد الحسين مخيف عندما كان يواجه الموت.. وكان يستقبل وجه القاتل بدهشة تشوبها المرارة، اذ لم يكن يتوقع ان ينتهي هذه النهاية على يد شاب كان يمكن ان يكون استاذاً له، أو على يد شيخ كان يمكن ان يكون قارئاً لكتبه وبحوثه، خصوصا انه لم يدخل في نزاع شخصي مع احد سوى بعض المشاكل التي لحقت به في الثمانينيات عندما ترك وظيفة التدريس ليعمل في سوق الاقمشة متخلصاً من وطأة الاوامر الحكومية..هكذا رحل (ابو سرمد) متألقاً كطائر وقد وشم الدم جسده النبيل ووجهه الطاهر البهي، ولم يكسب القتلة شيئاً سوى انهم اضافوا حزناً الى احزان عراقية جمة وانتزعوا من جسد الثقافة العراقية عقلاً نيراً مفيداً طالما احب العراق واهله.

رحم الله علي عبد الحسين مخيف شهيداً حراً وكاتباً محترماً.

ثلاث قصائد

جبار المشهداني

أمهات

كل رجال الارض بلا امهات
الاي
فلدي الاف الامهات
اولهن التي ولدتني
وكل حبيباتي امهات
اخرهن الحرب
كانت ارق الامهات
تموت الحرب ولا تاكل ابناءها
اما خالتي الثورة
فتاكل ابناءها وهم في
(رحمها)

دفاتر❖

خطف المسلحون قلبي
طالبوني بفدية مقدارها خمسُ (دفاتر)❖
جمعت لهم أغلى دفاتري
مذكراتي
وديوان اشعاري
ودفتر خدمتي العسكرية
ودفتر الامراض المزمنة
ولم افلح بالحصول على دفتر خامس يرضي طموح
الخاطفين
لذلك

وجدت قلبي مرمياً قرب جدار
(دفتر)❖ مفردة عراقية معناها عشرة الاف دولار اميركي.

محطات

بغداد

تضيف في قاعة فؤاد التكرلي

ضيفت قاعة فؤاد التكرلي في جمعية الثقافة للجميع المخرج والكاتب المعروف حسين السلمان. المخرج في مدينة الناصرية ، حائز على شهادة الماجستير في الإخراج السينمائي والتلفزيوني من بلغاريا، أستاذ مادة الإخراج والنقد السينمائي في معهد الفنون الجميلة بغداد، اخرج العديد من الأفلام التسجيلية والروائية وشاركت أفلامه في العديد من المهرجانات المحلية والعربية والعالمية مثل فيلم (كان ولم يزل) و(درجة حرارة صفر) و(حدث في يوم واحد) وكتب العديد من المسرحيات التي عرضت على مسارح بغداد والمحافظات .

القاهرة

تصوير مجسم ثلاثي الأبعاد لأحد أهرامات مصر

تبنى المجلس الأعلى للآثار بمصر مشروعا لتوثيق هرم زوسر المدرج بمنطقة سقارة جنوبي القاهرة ، وتوثيقه بالتصوير المجسم ثلاثي الأبعاد حفاظا على قيمته الأثرية اذ يعد أول هرم كامل بناه المصري القديم من الحجر الجيري قبل نحو ٤٦٥٠ عاما.

يستغرق هذا المشروع أربعة أسابيع وينفذ بالتعاون مع البعثة اليابانية وبعثة أثرية أمريكية ،حيث يتم تسجيل وتوثيق هذا الهرم باستخدام أحدث التطبيقات العلمية لمعرفة حالته وحالة القطع الحجرية ومصاطبه الست التي تعرضت للتهالك بفعل الزمن .

تونس

بيرم والشابي في موسوعة عن القصص التونسية

تم إعادة اكتشاف نصوص نثرية وقصصية لرواد تونسيين غير مشهورين بهذا الفن منهم شاعر العامية المصرية محمود بيرم التونسي والشاعر أبي القاسم الشابي اللذان شملتهما (موسوعة القصص العربية في تونس في القرن العشرين).

وتقع الموسوعة في ٧٢٢ صفحة كبيرة القطع وصدر الجزء الاول منها ضمن منشورات اتحاد الكتاب التونسيين ويضم ٦٤ نصا قصصيا اختارها عجينة الاستاذ بكلية الاداب بجامعة سوسة من تراث ٣١ كاتبا تونسيا ولدوا بين عامي ١٨٧١ و١٩٢٩ باعتبارهم كتابا مؤسسين للفن القصصي في البلاد .ولبيرم في الموسوعة أربعة نصوص تتراوح بين المقامة والقصة ونشرت بين عامي ١٩٣٤ و١٩٣٧ في صحف تونسية.

الحلة

كردستان تشارك في فعاليات بابل عاصمة الثقافة العراقية

يشارك معهد الفنون الجميلة/ كفري- اقليم كردستان بالتعاون مع البيت الثقافي العراقي في بابل في فعاليات بابل عاصمة الثقافة العراقية ٢٠٠٨ تحت عنوان (حوار الاحبة من كردستان الى الحلة. من خلال اقامة المعرض الفني الشامل لاساتذة وطلبة المعهد متضمنا اكثر من ٢٥ لوحة فنية تجسد حياة الطبيعة في كردستان وكذلك اقامة امسية ثقافية تتضمن القاء محاضرة بعنوان قراءة استلالية في المسرح الكردي) من قبل الفنان عليوي المدرس في المعهد.